الفوائد الدعوية الحقة المستنبطة من فتح مكة «دراسة وصفية تحليلية»

د. يوسف محمد النور حامد•

الملخـــص

تناول البحث فتح مكة الذي من أعظم الفتوح في التاريخ الإسلامي ، يهدف البحث إلى إبراز الفوائد التي تتوفر في الأسباب التي أدت إلى فتح مكة وذلك للاستفادة منها والاعتبار بها ، اعتمد الباحث على المنهج الوصفي، هذا بجانب المنهج التحليلي أحياناً، وايراد النص من مصدره الأصلي وعزو النصوص والشواهد إلى مصادرها الأصلية .، ومن أهم النتائج استنباط الحِكم والفوائد والأحكام من أحداث السيرة النبوية وفتح مكة المكرمة ، جمع ما تفرق من استنباطات في كتب السيرة المشهورة الخاص بفتح مكة . ذكر ما جاء من فوائد في بعض كتب شروح الحديث حول أحداث فتح مكة . فتح مكة كان فتحاً للإسلام بدخول الناس في دين الله أفواجاً . ومن أهم التوصيات احتمال قلة أدب غير المسلمين في التطاول على الإسلام وردهم رداً جميلاً للمصلحة العامة . على المسلم استحباب التفاؤل دائماً . على الإمام أو الأمير إذا ما طلب منه النصرفي حالة نقض العهد لا يرفض مادام فيه مصلحة المسلمين.

• الأستاذ المشارك بكلية التربية – جامعة القرآن الكريم وتأصيل العلوم – السودان.

Abstract

The conquest of Makkah is considered one of the greatest conquests in Islamic history, which encouraged the researcher to trace this conquest and extract the benefits from it, from the beginning of preparation for this conquest until its completion. The reasons that led to this conquest, and the benefits followed from the beginning of the journey of the Prophet, peace and blessings be upon him, and his honorable companions heading towards Mecca, and how the secret of this journey, which is useful in surprising the enemy, was concealed, until entering Mecca.

And all of this benefits came in perfect harmony that shows to the honorable reader the greatness of the leaders of Islam, and how they were planning for such invasions. Likewise, the benefit came from the patience of the Prophet, peace and blessings of God be upon him, and his companions to the harm of the enemy while not being exposed to those who did not sin on the path of their path, and the benefits also came in the forgiveness when they were able, when the Prophet, peace be upon him, pardoned the people of Mecca after they had all become prisoners to him.

مقدمـــــــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

الحمد لله الذي بعث لنا محمد بن عبد الله رسولاً نبياً، ترجم لنا بأعماله وأفعاله وأقواله وأخلاقه منهج الإسلام تطبيقاً وتفعيلاً، وأعطانا المثالية في العبادات والمعاملات والأخلاق في البيت والمسجد ومع الأصدقاء والأقارب والأعداء. فنصر الله تعالى به هذا الدين القويم، حتى وصل مشارق الأرض ومغاربها، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، من عرب وعجم، بل وضربوا أكباد الإبل في حياته حتى رأوه وآمنوا به. وقد عني علماء هذه الأمة بتسجيل سيرته العطرة في تفاصيلها الدقيقة حتى وصلت لنا كما كان عليه الصلاة والسلام في الحقيقة، وعُقِدَت لها الجلسات والمناقشات العلمية في دور العلم المختلفة. ولقد تضمنت سيرته ما يحتاج إليه الإنسان في دار معاده ومعاشه، وتضمنت من الفوائد والدروس والعظات والعبر ما تغني عن أسفار الكتب، وإنها لتعطي كل جيل ما يحتاجه من الهدي المبارك، الذي ينير له طريق مسيرته العلمية والدعوية والتربوية والأسرية والاجتماعية، وفي آدابه الخاصة وأخلاقه العامة، وفي مهنته ومدرسته وجامعته ومحيط أصدقائه ومع زوجته وأبنائه.

وإن دراسة السيرة بعمق من التفكير لسبر غور ما فيها من فوائد مكنونه لعمل دائم لا تنقطع غزارة فوائده، فروافد السيرة النبوية تتعدد في شعب الحياة المختلفة لتغذي بها أفئدة السائرين إلى الحق والطريق المستقيم. فتشحد الهمم وتعلوا بالخُلُق وترفع الذكر ويتوسع بها الذهن، وتزكوا بها الأنفس، وتتعطر بها الطباع السليمة، وتنصلح بها المفاهيم الفاسدة، وتحيا بها القلوب الميتة، ويتوسع

بها الأفق، ويتزين بها الأدب، فقد تغذى بها العلماء فأنار الله بها أفئدتهم وعقولهم، وانقدح على الخير فكرهم، وورثوا سيرته وعلمه، فأورثهم الله محبة خلقه، فتدافع الناس عليهم يتعلمون من علمهم، ويهتدون بفقههم.

ولما أن في السيرة النبوية العطرة من الفوائد مالا يحصيه ويقتفيه العلماء، ويحده الباحثون، رأيت أن أدرس سيرته واستجلي منها ما يوفقني الله تعالى إليه من الفوائد والعبر والدروس، ليستفيد منها من يوفقه الله تعالى إلى هذا البحث.

وإن منهجي في هذه الدراسة يقوم على أن السيرة النبوية قد حظيت باهتمام العلماء، فصنفوا فيها الأسفار، وحققوا مصادرها في مصنفات عديدة، وبينوا ما صح منها وما ضعف من الروايات، وبيَّن بعضهم اختلاف الروايات للحدث الواحد، فقد استفدت من ذلك الجهد العظيم، واكتفيت بالنص الواحد إذا تعددت الروايات. واجتهدت في إيراد النص من مصدره الأصلي كما هو، ثم أحلل هذا النص إذا احتاج إلى ذلك مع بيان فوائده وتطبيقاته.

وبالتالي لم أكثر من ذكر الروايات، بقدر ما أنظر في الرواية من فوائد وعبر ومواعظ، فأستجليها وأقدمها بما يتوافق مع حاجات اليوم بُغية الربط بين السيرة النبوية وحاجات أبناء الأمة التي تتجدد في صور متقاربة حسب الأزمان، ولم يستوعب هذا البحث كل دقائق وتفاصيل السيرة النبوية من الشمائل والأحكام وغيرها، بل هو قطف متدرج بحيث يجد القارئ الملامح العامة للسيرة النبوية العطرة التي اعتاد أن يقرأها في كتب السيرة. ومما قمت به عزو النصوص والشواهد إلى مصادرها الأصلية، وكذلك عزو الآيات القرآنية إلى مكانها من المصحف الشريف، والأحاديث النبوية إلى مصادرها من كتب السنة.

أسباب اختيار الموضوع:

كشف وبيان الفوائد التي تستفيد منها الأمة الإسلامية من فتح مكة.

الأهداف البحث:

يهدف البحث إلى إبراز الفوائد التي تتوفر في الأسباب التي أدت إلى فتح مكة وذلك للاستفادة منها والاعتبار بها

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في توضيح الفوائد التي صاحبت فتح مكة مما يقينا في زمننا الحاضر من أخلاق ومعاملات طيبة مع الآخرين.

منهجية البحث:

استخدم الباحث المنهج الاستقرائي التحليلي.

منهج البحث:

اعتمد الباحث على المنهج الوصفي، هذا بجانب المنهج التحليلي أحياناً، وايراد النص من مصدره الأصلي وعزو النصوص والشواهد إلى مصادرها الأصلية.

تنظيم البحث:

اشتمل البحث على مقدمة وخمسة مباحث وخاتمة.

المبحث الأول: **مفهوم الفوائد في اللغة والاصطلاح.**

أولاً: مفهوم الفوائد لغة.

ثانياً: مفهوم الفوائد اصطلاحاً.

المبحث الثاني: **مكة المكرمة – مكانتها، أهميتها، وفضلها.**

المبحث الثالث: **الفوائد المستنبطة من أسباب فتح مكة.**

المبحث الرابع: **الفوائد المستنبطة من مسيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) في رمضان.**

المبحث الخامس: **الفوائد المستنبطة من كيفية دخول مكة وإتمام الفتح.**

خاتمة: وبها النتائج والتوصيات.

ثبت بالمصادر والمراجع.

المبحث الأول

مفهوم الفوائد

الفائدة:

ما أفاد الله تعالى العبد من خير يستفيده ويستحدثه، وجمعها فوائد.

يقال إنهما ليتفايدان بالمال بينهما: أي يفيد كل واحد منهما صاحبه. والناس يقولون: هما يتفاودان العلم: أي يفيد كل واحد منهما الآخر.

والفائدة ما استفدت من علم أو مال، تقول منه: فادت له فائدة. أفدت المال: أي أعطيته غيري. وأفدته: استفدته. وفاد المال نفسه لفلان: يفيد إذا ثبت له مال.

والاسم الفائدة. وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما في الرجل يستفيد المال بطريق الربح أو غيره، قال: يزكيه يوم يستفيده: أي يوم يملكه.

وهذا لعله مذهب له، وإلا فلا قائل به من الفقهاء إلا أن يكون للرجل مال قد حال عليه الحول، واستفاد قبل وجوب الزكاة فيه مالاً، فيضيفه إليه ويجعل حولهما واحداً ويزكي الجميع. وهو مذهب أبي حنيفة وغيره[1].

ونقول فادت لفلان فائدة فيداً: حصلت له هذه الفائدة. والمال لفلان: ثبت له، وفلان: تبختر

أفاد فلان علماً أو مالاً: اكتسبه، يقال: أفاد منه مالاً أو علماً: أي اكتسبه إياه.

وتفايدا بالمال أو العلم: أفاد كل واحد منهما صاحبه. والفائدة: ما يستفاد من علم أو مال أي ربح المال في زمن محدد بسعر محدد وتسمى فوائد[2].

فاد فيداً: المال له: ثبت وقيل ذهب. وفادت له فائدة: أي حصلت له هذه الفائدة. وأفاد إفادة: الرجل، علماً أو مالاً: أعطاه إياه[3].

(١) لسان العرب / ابن منظور، (٣٤٩٨/٦).
(٢) المعجم الوسيط / مجمع اللغة العربية، (٧١٤/٢).
(٣) المنجد / معلوف، ص٤٢٧.

واستفاد منه علماً أو مالاً: أخذ منه واكتسبه. وتفايد القوم بالمال: أفاد كل واحد منهما صاحبه. والفائدة: الزيادة تحصل للإنسان[1].

ومن هذه التعاريف اللغوية السابقة الذكر، نخلص إلى أن الفائدة وجمعها فوائد. هي ما يستفيد منه الإنسان في حياته من زيادة في العلم أو المال ينتفع به.

(١) المنجد / معلوف، مرجع سابق، ص٤٢٨.

المبحث الثاني

مكة المكرمة مكانتها، أهميتها، وفضلها

مكة المكرمة هي بلد الله الحرام لها عدة أسماء جاءت في القرآن الكريم منها: مكة وبكة، والبلد الحرام، والبلد الأمين، والبلدة، وأم القرى، والقرية، وأم رحم، والباسة، والحاطمة – تحطم من يستخف بها – والناسة – تنسهم: أي تخرجهم اخراجاً إذا أغشموا وظلموا(١).

ومن أسماءها أيضاً: صلاح مثل قطام، والمقدسة، والنساسة، والكوثي: وهي اسم لمكان في مكة(٢).

ولمكة مكانة عظيمة في نفوس المسلمين لأن فيها أول بيت وضع للناس من أجل العبادة. ويرجع تاريخ عمارتها إلى عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام وسيدنا إسماعيل عليه السلام. وعظمت مكانتها وشرفت بمولد المصطفى (صلى الله عليه وسلم) ونشأته فيها، وفيها كان مبعثه (صلى الله عليه وسلم) ومنها خرجت دعوة الإسلام حتى عمت الدنيا. وبها المسجد الحرام الذي تعد الصلاة فيه بمائة ألف صلاة فيما سواه. وفيها من الآثار مقام إبراهيم عليه السلام، وبئر زمزم، ودار الأرقم، وغار حراء، وغار ثور، وجبلي الصفا والمروة، وفيها عرفة ومنى والمزدلفة ولا يتم الحج إلا بها(٣).

ولذا تعتبر مكة من أفضل بقاع الأرض من جهة مضاعفة ثواب الصلوات وكذلك احتوائها على البيت العتيق وجاء ذكرها بذلك في القرآن الكريم(٤). ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب / شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، ط١، ج١، دار الكتب، القاهرة، (٢٩٧/١).
(٢) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع / الطبري، أبو العباس محب الدين، تحقيق جمال طلبة، ط١، ١٩٩٨م، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٧٣٣.
(٣) المحلى بالآثار / ابن حزم الأندلسي، علي بن أحمد، تحقيق عبد الغفار سليمان، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، (٣٢٥/٥).
(٤) مكانة مكة المكرمة / عبد الرحمن بودرع، ط١، ٢٠١٠م، مطبعة الخليج العربي، الرياض، ص٢٨.

غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧]، ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ١٢٦].

ولمكة ظاهرة كونية عجيبة، إذ حمى الله جل جلاله مكة بجبالها وطبيعة تكوينها من البراكين والزلازل، والمعروف أن أغلب الأراضي الجبلية تكثر فيها البراكين والزلازل، ولم نسمع يوماً أن بمكة كان هناك بركان أو زلزال رغم كثرة جبالها، وكذلك الله عز وجل حمى مكة من الأحداث الكونية الكبرى، فهي سرة الأرض، وأول ما برد من قشرتها، وأرسخ مكان فيها، وصخور جبالها من أقوى الصخور وأصلبها(١).

كما أن من فضلها دعا لها سيدنا إبراهيم عليه السلام ربه أن يجعل هذا البلد آمناً، وأن يرزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر، ومن لم يؤمن إلى حين. ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ١٢٦].

مكة المكرمة تعتبر أحب أرض الله إلى الله تعالى، إذ قال في ذلك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو مهاجر من مكة إلى المدينة المنورة مخاطباً مكة: (والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت)(٢).

وهي أحب أرض الله إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن مكة عند الهجرة: (ما أطيبك من بلد، وأحبك إلّي، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك)(٣).

وحرّم الله مكة بحرمته: وكن ذلك منذ بدء الخليقة وقبل بناء سيدنا إبراهيم عليه السلام للكعبة(٤). فقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم فتح مكة:

(١) مكة المكرمة منبع العلم والحضارة / عبد الله صالح حبابي وآخرين، ط١، ٢٠٠٦م، دار زهرة الشرق، القاهرة، ص٢٦.
(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٦٣٧٢).
(٣) سنن الترمزي، وهو حديث صحيح، رقم (٣٩٢٦).
(٤) ذكرى من مكة المكرمة / خالد محمد حامد، ط١، ٢٠٠٥م، دار المأمون للتراث، دمشق، ص٨.

(إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه – أي لا يقطع شجره – ولا ينفر صيده – أي لا يقام من ظله، وينزل مكانه – ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها – أي من وجد شيئاً ذا قيمة فلا يأخذه إلا لتعريفه، ولا يصح له امتلاكه –ولا يُخلى خلاها – أي لا يقطع حشيشها لو كان رطباً)[1]. وقد ورد تحريمها في القرآن الكريم. ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١].

مكة المكرمة لا يدخلها المسيخ الدجال: عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي (صلى الله عليه وسلم): (لا يدخل الدجال مكة ولا المدينة)[2].

مكة المكرمة حرام على الكفار دخولها. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨]. ويكفي مكة المكرمة فخراً أن:

- بها ولد رسول الله (صلى الله عليه وسلم).
- بها بيت الله الحرام، الذي هو قبلة أهل الأرض.
- أقسم الله عز وجل بها في القرآن الكريم.
- أوجب الله على كل قادر الإتيان إليها للحج والعمرة.
- أوجب الله عز وجل دخولها على عباده وهم كاشفوا رءوسهم متجردين من لباس أهل الدنيا.
- جعل الله الوصول إليها والطواف ببيتها مكفراً لما سلف من الذنوب[3].

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (١٣٥٣).
(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، حديث رقم (٢٦٠٤٧)، وهو حديث صحيح.
(٣) أخبار مكة في قديم العصر وحديثه / عبد الملك عبد الله، ط١، النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ص١٣٢.

المبحث الثالث

الفوائد المستنبطة من أسباب فتح مكة

لما كان من صلح الحديبية بين رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وبين قريش، كان فيما شرطوا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وشرط لهم: أنه من أحب من القبائل الأخرى أن يدخل في عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فله ذلك، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش فله ذلك، فدخلت خزاعة في عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ودخلت بنو بكر في عهد قريش.

فلما كانت الهدنة اغتنمها بنو الديل من بني بكر وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة منهم ثأراً بأول النفر الذين أصابوا منهم ببني الأسود بن رزن. فخرج نوفل بن معاوية الديلي في بني الديل، حتى بيت خزاعة وهم على الوتير – ماءً لهم – فأصابوا منهم رجلاً وتجاوزوا[1]. واقتتلوا ورفدت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم من قريش نفر مستخفين بالليل[2].

لذا يعتبر هذا العمل من قريش نقضاً للعهد مع النبي (صلى الله عليه وسلم) فاستحقوا أن يهاجمهم النبي (صلى الله عليه وسلم) ليرد اعتدائهم على أحلافه من بني خزاعة، وكان فتح الله عليه كبير حيث كانت تلك الحادثة بداية لفتح مكة[3].

ويستفاد من ذلك أن أهل العهد إذا حاربوا من هم في ذمة الإمام وجواره وعهده صاروا جميعاً حرباً لهم بذلك، ردئهم ومباشريهم إذا رضوا بذلك ولم ينكروه[4].

ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على النبي (صلى الله عليه وسلم) بالمدينة المنورة، فأخبروه بما أصيب منهم، وبمظاهرة قريش بني بكر

(١) تجاوزوا: يعنى انحاز كل منهم إلى قبيلته.

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام / عبد السلام محمد هرون، ط٦، ١٩٨٩م، مكتبة السنة، القاهرة، ص٢٣١.

(٣) الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام / أبو القاسم السهيلي، تحقيق مجدي بن منصور، ط١، ٢٠٠٩م، دار الكتب العلمية، القاهرة، (١٨٣/٢).

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد / ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط١، ١٤١٨هـ، مؤسسة الرسالة، القاهرة، (٤٢٠/٣).

عليهم[١].

وفي جواب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لعمرو بن سالم الخزاعي ما يفيد نُصرة الحليف على من خان الميثاق، وذلك بما يؤكده منهج الإسلام يحترم المواثيق والأحلاف، ويعطيها من الحق والنصرة ما تستحق. فكيف لو كان هذا الحلف مع جماعة مسلمة ؟ لكان ذلك أدعى.

قال ابن القيم رحمه الله: أن أهل العهد إذا حاربوا من هم في ذمة الإمام وجواره وعهده صاروا حرباً له بذلك، ولم يبق بينهم وبينه عهد[٢].

ولم يغز رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قريشاً حتى بعث إليهم ضمرة يخيرهم بين إحدى ثلاث: أن يودوا قتلى خزاعة، وبين أن يبرأوا من حلف بني بكر، أو ينبذ إليهم على سواء. فأتاهم ضمرة فخيرهم، فقال قرظة بن عمرو: لا نودي ولا نبرأ، ولكننا ننبذ إليه على سواء. فانصرف ضمرة بذلك، فأرسلت قريش أبا سفيان بن حرب يسأل النبي (صلى الله عليه وسلم) في تجديد العهد[٣].

ويستفاد من هذا أن الإمام يخير من نقض العهد والميثاق بما يراه مناسباً، ويحقق مصلحة المسلمين. كما يستفاد منه أيضاً أن الدولة المسلمة لا تقبل بالضيم ولا تركن للاعتداء، وهي حين يلتزم بالعهد لا تتهاون مع من ينقضه، فإذا عُرف ذلك منها توقف أعداؤها عن عدوانهم، واطمأن أتباعها ورعاياها وحلفاؤها إليها فكانوا معها ولفدوها بالمهج والأرواح لأنها تدافع عنهم وتعمل على حمايتهم[٤].

خافت قريش فانطلق أبو سفيان بن حرب زعيمها حتى قدم المدينة المنورة على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان، أم المؤمنين رضي الله عنها وأرضاها، فلما ذهب ليجلس على فراش النبي (صلى الله عليه وسلم) طوته عنه، فقال: يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش، أم

(١) السيرة النبوية / ابن هشام، (٤/٣١-٣٧).
(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد / ابن القيم، المرجع السابق، (٣/٤٢١).
(٣) صحيح البخاري من فتح الباري، (٨/٦).
(٤) بدر التمام في سيرة خير الأنام / علي بن عمر وآخر، ط١، ٢٠١٥م، دار ابن حزم، بيروت، ص٣٩١.

رغبت به عني ؟ قالت: بل هو فراش رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله (صلى الله عليه وسلم). قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر[١].

والفائدة هنا من هذا الفعل من أم المؤمنين أم حبيبة رضي الله عنها ليدل على مدى الولاء والحب لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتقديمه على الوالد، وصون فراشه عن أن يجلس عليه والدها أبو سفيان وهو مشرك.

وفيه أيضاً من الفائدة للنساء عموماً ودرس مهم، لأن من حق الرجال على النساء ألا يوطئن فرشهم أحداً يكرهونه.

فقد صانت رملة رضي الله عنها فراش زوجها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن مجرد الجلوس، وصون الفراش عما سواه أولى.

وبهذا السلوك التطبيق الشرعي لمنهج الإسلام، وفيه اختلاف أحكام الناس باختلاف المقاييس المتأثرة بنوع الدين[٢].

ثم خرج أبو سفيان حتى أتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فكلمه فلم يرد عليه شيئاً، ثم ذهب إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فكلمه أن يكلم له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال: ما أنا بفاعل ! وهنا إن الإمام وغيره إذا سئل مالا يجوز بذله أو لا يحب فسكت عن بذله لم يكن سكوته بذلاً له.

ثم أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكلمه فقال: أأشفع لكم إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فوالله لو لم أجد إلا الذر[٣] لجاهدتكم به. ثم خرج فدخل على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وعنده فاطمة بنت محمد (صلى الله عليه وسلم) ورضي الله عنها، وعندها الحسن بن علي غلام يدب بين يديها، فقال يا علي: إنك أمس القوم بي رحماً، وإني قد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً، فاشفع

(١) السيرة النبوية / ابن هشام، المرجع السابق، (٣٨/٤).
(٢) الفوائد السنية من السيرة النبوية / خالد بن حامد الحازمي، ط١، ٢٠٠٦م، دار الزمان، المدينة المنورة، ص٤٦٦.
(٣) الذر: صغار النمل.

لي إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم). فقال: ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. فالتفت إلى فاطمة فقال: يا ابنة محمد، هل لك أن تأمري بُنيك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت: والله ما بلغ بُنيّ ذاك. أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)[1].

وهنا تمثلت الفائدة في وحدة الصف المسلم جلية في موقف أبي بكر وعمر وعلي وفاطمة رضي الله عنهم أجمعين، لعلمهم بأن النبي (صلى الله عليه وسلم) إذا عزم على أمر فلن يتراجع عنه تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ولأن نقض قريش للعهد يجب ألا يمر دون جزاء.

وبمثل هذا الصف المتماسك كالبنيان المرصوص فتح المسلمون العالم كله، ولن يرجع لهم عزهم ومجدهم إلا بالتزامهم بالإسلام منهجاً وعقيدةً وسلوكاً، وباتحاد الصف المسلم حتى تكون قلوب المسلمين على قلب واحد، وما ذلك على الله بعزيز[2].

قال أبو سفيان لعلي بن أبي طالب: يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدت عليّ فانصحني. قال: والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك شيئاً، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم ألحق بأرضك. قال: أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً ؟ قال: لا والله ما أظن، ولكني لا أجد لك غير ذلك.

فقام أبو سفيان في المسجد فقال: أيها الناس، إني قد أجرت بين الناس. ثم ركب بعيره وانطلق. فأخبر قريشاً بذلك فقالوا له: فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال: لا.

(١) بدر التمام في سيرة خير الأنام / علي بن عمر وآخر، المرجع السابق، ص٣٩٣.

(٢) نور النبراس على سيرة ابن سيد الناس / ابن العجمي، أبو الوفاء برهان الدين إبراهيم بن محمد، ط١، ٢٠١٤م، دار النوادر، دمشق، (٢٤٣/٢).

قالوا: ويلك ! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك[١].

في هذه الإجابات من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما يدل على صدقهم في الحديث، وعدم مجاملتهم لأقربائهم من الكفار. واحترامهم لإرادة النبي (صلى الله عليه وسلم) فلم يخاطبوه في هذا الأمر الذي جاء من أجله أبو سفيان، ونجد هناك من الفوائد أن رسول الكفار لا يُقتل، فإن أبا سفيان ممن جرى عليه حكم انتقاض العهد ولم يقتله رسول الله (صلى الله عليه وسلم)[٢].

(١) السيرة النبوية / ابن هشام ، المرجع السابق ، (٣٩/٤).
(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد / ابن القيم ، المرجع السابق ، (٤٢٢/٣) .

المبحث الرابع

الفوائد المستنبطة من مسيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) للفتح في رمضان

أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالجهاز، وأمر أهله أن يجهزوه، فدخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على ابنته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وهي تحرك بعض جهاز النبي (صلى الله عليه وسلم)، فقال: أي بنية، أأمركم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن تجهزوه ؟ قالت: نعم، فتجهز. قال: فأين ترينه يريد ؟ قالت: لا والله ما أدري[1].

هنا فائدة، كتمان السيدة عائشة رضي الله عنها لسر رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، يعتبر نموذج حي للمرأة المسلمة التي يجب أن تحفظ سر زوجها، لاسيما إذا كان يتعلق بأمر عام من أمور المسلمين.

ثم أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتهيؤ، وقال (صلى الله عليه وسلم): (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها)[2].

وتفيد هذه الرواية أن لولي الأمر أن يباغت العدو الذي نقض الميثاق والعهد. وللسرية دور كبير في حسم المعارك، ومباغتة العدو، ولذلك حرص النبي (صلى الله عليه وسلم) على اخفاء الخبر عن قريش.

والقائد الناجح هو الذي يوازن بين السرية والجهرية في الخطط العسكرية التي يعدها لنصرة دينه.

ويسعى أعداء الإسلام إلى معرفة ما يريد العاملون للإسلام القيام به ليضعوا لهم الخطط السرية لضرب الإسلام والمسلمين في عقر دارهم[3].

(١) الرحيق المختوم / صفي الرحمن المباركفوري، ط١، ٢٠١٣م، دار السلام، القاهرة، ص٣١٢.
(٢) السيرة النبوية / ابن هشام، المرجع السابق، (٤/٤٠).
(٣) الفوائد السنية من السيرة النبوية / خالد بن حامد الحازمي، المرجع السابق، ص٤٦٨.

ولما كشف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وجهته للمسير – أي يريد مكة – كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الأمر في السير إليهم. ثم أعطاه امرأة، وجعل لها جُعلاً على أن تبلغه قريشاً، فأتى الخبر إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من السماء، فبعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام والمقداد بن عمرو إلى مكان يسمى روضة خاخ[١]. وقال لهم تجدون هناك ظعينة[٢]. ومعها كتاب فخذوه منها.

فانطلقا حتى أدركاها بالخليقة – خليقة بني أبي أحمد – فاستنزلاها فالتمسا في رحلها فلم يجدا شيئاً، فقال لها علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إني أحلف بالله ما كذب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولا كذبنا، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك[٣]. فأخرجته من عقاصها أي شعرها.

نجد هنا فائدة في جواز تجريد المرأة كلها وتكشيفها للحاجة والمصلحة العامة، وإذا جاز تجريدها لحاجتها إلى ذلك فتجريدها لمصلحة الإسلام والمسلمين أولى[٤].

وأيضاً هناك فائدة أخرى، الحق الذي عليه كل الأئمة الأربعة وجمهور العلماء والباحثين أنه لا يجوز تعذيب المتهم الذي لم يثبت عليه الجريمة ببينة شرعية كافية حملاً له على الإقرار، فالمتهم برئ مالم تثبت جريمته.

وأما قياس تعذيب المتهم على تهديد علي بن أبي طالب رضي الله عنه للمرأة بكشفها فلا يصح لسببين:

١- لأن المرأة لم تكن متهمة بل كانت جريمتها ثابته نزل الوحي بالإخبار عنها.

٢- ليس إلقاء الثياب للتفتيش عن الكتاب كأمر التعذيب والحبس فالفرق بينهما

(١) موضع بين مكة والمدينة، صحيح مسلم بشرح النووي، (١٦/٥٥).

(٢) الظعينة: هي الجارية، وأصلها الهودج، وسميت بها الجارية لأنها تكون فيه، واسم هذه المرأة سارة مولاة لعمران بن أبي صيفي القرشي. صحيح مسلم بشرح النووي، (١٦/٥٥).

(٣) بدر التمام في سيرة خير الأنام / علي بن عمر وآخر، المرجع السابق، ص٣٩٥.

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد / ابن القيم، المرجع السابق، (٣/٤٢٣).

كبير وواضح[١].

فجيء بالخطاب فإذا هو من حاطب بن أبي بلتعة – إلى أناس بمكة من المشركين – يخبرهم ببعض أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

وفي هذا معجزة ظاهرة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وفيه هتك أستار الجواسيس بقراءة كتبهم، سواء كان رجلاً أو امرأة، وفيه هتك ستر المفسدة إذا كان فيه مصلحة، أو كان في الستر مفسدة.

وفي تعامله (صلى الله عليه وسلم) مع القضية درس تربوي وإداري وخُلقي كما يتضح من لنص: (..... فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): يا حاطب ما هذا ؟ قال: يا رسول الله لا تعجل علّي ! إني كنت امرءاً ملصقاً في قريش – أي حليفاً لقريش – ولم أكن من أشرافها، وكل من معك من المهاجرين لهم قربات في مكة تحمي أهليهم وأموالهم إلا أنا، فأحببت أن تكون لي يداً عليهم يحمون بها قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا حباً في قريش....)[٢].

وفي هذا الحديث المنهجية الخُلُقية والتربوية والإدارية الإسلامية في التعامل مع هذا الموقف، ففيه السؤال عن علة الصنيع، وتقديمه على الحكم، وعدم التسرع في تفسير الحدث، وفيه طيب المعاملة منه (صلى الله عليه وسلم).

وذلك ما فكر فيه حاطب وهو خطأ، لأن المشركين لم يذكروا في عداوتهم للإسلام والمسلمين رحماً ولا أهلاً، فما ينبغي أن نبقي لهم وداً وقد خاصمناهم في ذات الله، وأخذنا العهد أن نبذل في حربهم أنفسنا وأموالنا[٣].

وفي تحليل حاطب رضي الله عنه لما قام به، بيان لما يحدث للنفس البشرية، وما يعترضها، ويقابل ذلك المنهج الإسلامي الذي يتعامل معها وفق طبيعتها، ولا يجردها مما قد يعترضها ويعتريها، بل ينصفها حتى في أحلك الظروف وأصعب

(١) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية / محمد سعيد رمضان البوطي، ط٦، ٢٠١٢م، دار السلام، القاهرة، ص٤٠٠.
(٢) صحيح البخاري، (١٤٧/٣)، حديث رقم ٤٢٧٤.
(٣) فقه السيرة / محمد الغزالي، ط٧، ١٩٩٨م، دار القلم، دمشق، ص٣٧٥.

المواقف، كما يتبين من جواب رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (.... فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): أما إنه قد صدقكم. فقال عمر رضي الله عنه: دعني أضرب عنقه يا رسول الله هذا منافق. فقال (صلى الله عليه وسلم) لعمر وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. وحاطب هذا من أهل بدر)[1].

وهذا يبين منزلة أهل بدر في الإسلام، وفيه درس وفائدة للدعاة إلى الله أن يحفظوا لأصحاب الحسنات والفضائل السابقين في الدعوة مكانتهم وألا يتطاولون عليهم. وأن لا ينشروا زلاتهم وهفواتهم التي لا ضرر على المسلمين من كتمانها وسترها[2].

وقد أنزل الله تعالى في شأن حاطب هذه الآيات من سورة الممتحنة. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ * لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ١-٤].

فالفائدة هنا أن هذه الآيات نزلت صريحة تأمر المسلمين أن يجعلوا ولاءهم لله وحده وأن يقيموا علاقاتهم مع الناس أياً كانوا على أساس ما يقتضيه ولاءهم لهذا الدين الحنيف والإخلاص له، لا على أساس الأهل والعشيرة أو مصلحة المال

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، (١٦/٥٥).
(٢) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية / محمد سعيد رمضان البوطي، المرجع السابق، ص٤٠١.

والدنيا، لأن من أقام ولاءه على أساس الأهل والعشيرة لا يهمه أن يبيع الحق بالباطل أو يجعل الدين غلافاً للأماني الدنيوية الحقيرة، وبمثل هذه الأصناف تأخر المسلمون، وبمثل هذه الأصناف تستر أعداء الإسلام في مؤامراتهم ودسائسهم ضد الإسلام(١).

ومضى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في سفره إلى مكة المكرمة في عشرة آلاف من أصحابه لعشر مضين من شهر رمضان، حتى إذا كانوا بالكديد – مكان بين عسفان وأمج – دعا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بإناء من ماء، فشرب نهاراً ليراه الناس، فأفطر حتى قدم مكة.

وهنا نجد فائدة عظيمة تؤكد أهمية الإعلام والتوجيه بالقدوة، فإن تأثيرها أبلغ، وهو الأسلوب الذي يركز عليه المنهج الإسلامي.

ومن الفوائد أيضاً أنه يجوز للمسافر الفطر، حيث سافر النبي (صلى الله عليه وسلم) في رمضان فصام وأفطر وخيّر الصحابة، وكان يأمرهم بالفطر إذا دنوا من عدوهم ليتقووا على قتاله(٢).

ثم مضى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في عشرة آلاف من المسلمين حتى نزل مر الظهران، وقد عُميت الأخبار عن قريش لدعاء النبي (صلى الله عليه وسلم) ربه بحجب الأخبار عن قريش، فلم يأتي قريش خبر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ولا يدرون ما هو فاعل حتى نزل مر الظهران، وهو مكان قريب من مكة(٣).

والفائدة في هذا هي جواز مباغتة المعاهدين إذا نقضوا العهد. والإغارة عليهم وألا يعلمهم بمسيره إليهم.

(١) السيرة النبوية على ضوء المصادر الأصلية / البوطي، المرجع السابق، ص٤٠٣.
(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد / ابن القيم، المرجع السابق، (٢/٥٣).
(٣) بدر التمام في سيرة خير الأنام / علي بن عمر وآخر، المرجع السابق، ص٣٩٩.

المبحث الخامس

الفوائد المستنبطة من كيفية دخول مكة وإتمام الفتح

علمنا أن النبي (صلى الله عليه وسلم) نزل بمر الظهران بالقرب من مكة، وليس لقريش خبر بقدومه (صلى الله عليه وسلم) إليهم، فأمر النبي (صلى الله عليه وسلم) الجنود كلٍ يشعل له ناراً لوحده، فأشعلت عشرة ألف نار أضاءت الوادي كله، وصادف أن خرج أبو سفيان بن حرب زعيم قريش وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء، يتحسسون الأخبار، وقد كان العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عم النبي (صلى الله عليه وسلم) قد خرج مهاجراً مع أولاده من مكة إلى المدينة، فلقي النبي (صلى الله عليه وسلم) ببعض الطريق، فترك أبناءه يواصلون السير إلى المدينة ورجع هو مع النبي (صلى الله عليه وسلم).

فأقبل أبو سفيان وصحبه يسيرون حتى أتوا مر الظهران، فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة، فقال أبو سفيان ما هذه ؟ لكأنما نيران عرفة، فقال بديل بن ورقاء: نيران بني عمرو، ويقصد بهم خزاعة. فقال ابو سفيان: بني عمرو أقل من ذلك.

وقيل أن العباس بن عبد المطلب خرج في نفس الوقت على بغلة النبي (صلى الله عليه وسلم) يبحث عن أحد من اهل مكة ليحذرهم بعدم التعرض للنبي (صلى الله عليه وسلم) والتزام دورهم. وفي هذه الأثناء سمع صوت أبو سفيان فعرفة، فناداه يا أبا حنظلة – وهذه كنية ابو سفيان – فسمعه ابو سفيان فعرفه فقال يا أبا الربيع – وهذه كنية العباس – فالتقيا، فقال له العباس هذا ابن أخي محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) آتيكم بجيش لا قبل لكم به لذلك أنصحكم ألا تتعرضوا له، ونصيحة خاصة لك يا أبا سفيان أن تذهب معي إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتسلم، فقبل أبو سفيان هذه النصيحة وذهب مع العباس إلى رسول الله

(صلى الله عليه وسلم) فاسلم بعد ذلك[١].

والفائدة هنا بيان أهمية أثر إظهار قوة المسلمين أمام الكفار، لما تحدثه من أثر فاعل في قلوب الأعداء، وتغرس الهيبة والمهابة في نفوسهم للمسلمين، وفيه أهمية اتخاذ الحراسة المتحركة، وأن من قبض عليه من الأعداء يُبلغ به ولي الأمر[٢].

يقال أن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أسلم وكتم إسلامه عن قومه، وصار يكتب لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالأخبار ثم هاجر قبل الفتح بقليل. وكان المسلمون يتقوون به بمكة وكن يحب أن يقدم على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فكتب إليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (إن مقامك بمكة خير)[٣]. فلذلك قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم بدر: (من لقى منكم العباس فلا يقتله فإنه إنما أخرج كارهاً)[٤]. فعلى الرغم من وجوب الهجرة فإن النبي (صلى الله عليه وسلم) أذن للعباس بالبقاء بمكة لمصلحة الإسلام والمسلمين حتى إذا انتهت هذه المصلحة لحق العباس رضي الله عنه بالنبي (صلى الله عليه وسلم) قبل فتح مكة.

وهنا فائدة تدل على أن على المسلم أن يلتزم بما يأمره به ولي الأمر، وإن خالف ما يحب، مادام ذلك في مصلحة الإسلام والمسلمين، وليس فيه معصية لله تعالى. وقد كان في قدوم هؤلاء النفر خير للمسلمين، حيث أسلم ابو سفيان، فدخل بديل وحكيم على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فاسلما[٥].

ولما أسلم أبو سفيان قال العباس للنبي (صلى الله عليه وسلم): يا رسول الله ! إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً، فقال النبي (صلى الله عليه وسلم): من دخل دار أبو سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق دونه بابه فهو آمن[٦].

(١) السيرة النبوية / ابن هشام ، المرجع السابق ، (٣٩/٤).
(٢) الفوائد السنية في السيرة النبوية / خالد بن حامد الحازمي ، المرجع السابق ، ص٤٧٢ .
(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب / ابن عبد البر القرطبي ، يوسف بن عبد الله ، ط١ ، ١٤١٢هـ ، دار الكتب العلمية ، دمشق ، (٢٤٤/١).
(٤) المستدرك على الصحيحين / الحاكم النيسابوري ، محمد بن عبد الله ، ط١ ، ١٩٩٩٠م ، دار الكتب العلمية ، دمشق ، حديث رقم ٤٩٨٨.
(٥) فتح الباري من صحيح البخاري / ابن حجر العسقلاني ، (٧/٨).
(٦) السيرة النبوية / ابن هشام ، المرجع السابق ، (٤٦/٤).

وفي هذا الاقتراح من العباس رضي الله عنه وقبوله من النبي (صلى الله عليه وسلم) ما يدل على أهمية مراعات الجوانب النفسية، وخصائص وطبائع البشر في مجال الخير. لقد كان أبو سفيان يتوقع أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) سيضرب عنقه، ويستأصل قريش عن بكرة أبيها لشدة ما كانوا يعادونه ويحاربونه ويؤذونه، لكن الرحمة المهداة لم يكن

يريد ذلك فقد كان في خضم الأذى والشدة يدعو لقومه ويقول: (اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون)[1]. ولذا أخذ النبي (صلى الله عليه وسلم) يحاور أبا سفيان ويدعوه للإسلام فتعجب من حلمه وكرمه وصلته لرحمه (صلى الله عليه وسلم) حتى فداه بأبيه وأمه بعد أن كان عدوه اللدود وانتهى به الأمر للإسلام[2].

والفائدة هنا تأتي بعد هذا السؤال: ما قيمة إسلام لم يأت إلا بالتهديد ؟ والجواب: أن المطلوب من الكافر في الدنيا هو الإسلام بقلبه ولسانه وكيانه لدين الله تعالى فيخضع لتوحيد الله عز وجل ويذعن لنبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) وكل ما جاء من عند الله تعالى، أما الإيمان فيربو بعد ذلك في قلبه مع استمرار تمسكه بالإسلام وخضوعه له[3]. ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٤].

لقد كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خبيراً في النفس البشرية، فأعطى أبا سفيان ميزة على غيره تأليفاً لقلبه، كما كان (صلى الله عليه وسلم) أستاذاً في الحرب النفسية، حيث أعطى ابو سفيان انطباعاً عن قوة المسلمين ليعود إلى قومه ويحذرهم من مواجهة النبي (صلى الله عليه وسلم) وقتاله ويكون رسول سلام لقومه، وذلك حين قال للعباس أحبسه بمضيق بالوادي عند خطم الجبل[4].

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان ، حديث رقم ١٣٧٥.
(٢) الرحيق المختوم / صفي الرحمن المباركفوري ، المرجع السابق ، ص٣٤٤.
(٣) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية / البوطي ، المرجع السابق ، ص٤٠٣.
(٤) خطم الجبل : أي أنف يخرج منه يضيق به الطريق.

حتى تمر به جنود الله فيراها.

والفائدة هنا تدل على حضارة الإسلام في استخدام الوسائل المتاحة الكفيلة للوصول إلى الغرض المنشود بأبسط التكاليف البشرية والمادية مع إبراز القوة العسكرية والسياسية دعماً لذلك الهدف[١].

ومما يلاحظ من له أدنى خبرة في الحروب كثرة استخدام هذا الأسلوب – أي الحرب النفسية – من قبل دول كبرى معاصرة ضد من يخالفها، بل في الغالب عدواناً وظلماً على الآخرين. إلا أن ما يلفت النظر هنا هو سبق الإسلام في استخدامها، لكن لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

ومن هنا نقول أن الإسلام ليس منهج تخلف، بل هو منهج للتقدم والتحضر، ولكن العيب في تفريط الأتباع[٢].

قال العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: فخرجت حتى حبسته – أي أبو سفيان – بمضيق الوادي حيث أمرني رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن أحبسه. ومرت القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هذه ؟ فأقول: سُليم. فيقول ما لي ولسُليم. ثم تمر القبيلة الأخرى فيسأل، حتى مر به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في كتيبته الخضراء، وفيها المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم أجمعين، لا يُرى منهم إلا الحدق من الحديد، فقال: سبحان الله يا عباس ومن هؤلاء ؟ قلت: هذا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قِبل ولا طاقة ! والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً !! قلت: يا أبا سفيان إنها النبوة. قال: نعم إذن. قلت: النجاء إلى قومك أي الإسراع إلى قومك[٣].

(١) السيرة النبوية دروس وعبر / مصطفى السباعي، ط١٢، ٢٠١٤م، دار السلام، القاهرة، ص١٧٦.
(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد / ابن القيم، المرجع السابق، (٤٢٨/٣).
(٣) السيرة النبوية / ابن هشام، المرجع السابق، (٤٨/٤).

إنها النبوة حقاً، فالنبي (صلى الله عليه وسلم) لم يخرج من مكة ويهاجر منها ولم يقاتل قريشاً وغيرها من العرب لأنه يريد الملك والجاه والسلطان وإحياء العصبية والقومية، فقد عرضت عليه قريش الملك والمال والجاه مقابل التخلي عن دعوته فرفض، وجاءت هذه الكلمة على لسان العباس (إنها النبوة) لتعطي عنواناً لفصول حياة النبي العظيم (صلى الله عليه وسلم) وتكون رداً على كل من يتوهم خلاف ذلك إلى قيام الساعة.

ثم صدرت التوجيهات النبوية الكريمة لقادة النبي (صلى الله عليه وسلم) للتحرك ناحية مكة. وقد دخل النبي (صلى الله عليه وسلم) مكة عام الفتح من أعلى مكة، من كداء[1]. وأمر النبي (صلى الله عليه وسلم) أصحابه ألا يقتلوا أحداً إلا من قاتلهم.

فلما ظهر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على ثنية أذاخر رأى البارقة فقال: (ألم أنه عن القتال ؟ فقيل: خالد قوتل فقاتل. فقال: قضاء الله خير)[2].

وفي هذا دلالة واضحة على نهي النبي (صلى الله عليه وسلم) عن القتال مالم يقاتلهم أحد.

ومن الفوائد التطبيق العملي للعفو عند المقدرة، كما هو معهود منه (صلى الله عليه وسلم) فيقدم لأمته النموذج التطبيقي في ذلك، الذي تحتاجه الأمة في معاملتها مع بعضها البعض، ومد سلطان العفو للآخرين، حتى يدركوا رحمة الإسلام وسمو أخلاقه، التي تندفع بها النفوس للدخول في دين الله تعالى.

ومن الفوائد أن مكارم الأخلاق العفو والصفح عند المقدرة، وأن لا يرغب المسلم عن العالم ويزهد فيه، بل يجله ويرغب فيه، فلئن توفى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فإن العلماء هم ورثة الأنبياء. وفيه الفخر والعبودية لله تعالى وإعلانها.

(١) صحيح البخاري من فتح الباري / ابن حجر العسقلاني ، (١٥١/٣) حديث رقم ٤٢٩١ .
(٢) الطبقات الكبرى / ابن سعد ، (١٣٦/٢).

كما يستفاد من ذلك أيضاً أن لا يفتتن المرء بالعالم، فينزله منزلة الربوبية أو الألوهية.

ومن فوائد ذلك أن العالم يدفع ما قد يدور في أذهان الآخرين من مفاهيم وتوقعات غير صحيحة. وفيه أثر التربية النبوية، وأن من أراد الخير في غير مسلك ومنهج التربية الإسلامية فقد بحث في المجهول الذي نهايته الظلام[1].

وهكذا يجب أن يكون حال المسلمين دائماً، عبودية مطلقة لله تعالى في السراء والضراء، في الرخاء والشدة، وعند الضعف والقوة، وليس من شأن المسلمين إطلاقاً أن يتظاهروا بالذل حال المصيبة والكرب كما نراه اليوم، فإذا فرحوا أسكرتهم الفرحة وأسكرهم الطغيان عن كل سيء، ومروا من جنب أومر الله تعالى وأحكامه ساهين لاهين كأن لم يدعوهم ولم يتذللوا له في كشف ضُر مسهم.

(١) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية / البوطي ، المرجع السابق ، ص٤٠٥.

خاتمـــة

الحمد لله على ما أتم من نعمة بإتمام هذا العمل الصغير، فله الحمد على آلائه، وأسأله تعالى أن لا يحرمنا أجره، ولا يبعدنا عن نبيه، ولا عن دفء ظلاله، وبرد العيش في رحابه، فلقد كانت أياماً طيبة، ولحظات قيمه مع خاتم الرسل (صلى الله عليه وسلم).

وكم تمنيت أن يطول بي المقام في هذه الساحات الزكية للإغتراف منها، ونقل ما أغترف من منابع السيرة النبوية وفتح مكة خاصة إلى قلمي الضعيف ليخرجها من جديد محمله بمشاعر الإكبار والتقدير، منغمسة في بحر الانبهار الكبير، لابسة رداء أسلوبي الخاص، مغموسة في قاموسي الشخصي، لكن حجم البحث الذي أردته أن يكون عليه يكتفي بهذا القدر، فهذا البحث ليس تأريخاً أو تدويناً لأحداث، بل هو استنباط فوائد، لذلك لا ضير من الايجاز، أو التنقل عبر المواقف وانتقاء بعضها دون بعض.

ومع ذلك تبقى النفس عامرة بالضياء الذي اقتبست من أنوار السيرة النبوية ولو لم نذكر كل أحداثها هنا، فما أعظم ما تنعم به النفس من فخر وإيمان في ظلال فتح مكة، لقد اتفق عليه الصحابة لأنهم قدّروا الأمور بظواهرها، ولم يطلقوا لأنفسهم مجال التفكر فيما وراءها، ولو فعلوا لعلموا أنهم إنما يمسكون مفتاح الفتح بتوقيعهم العهد، لقد صار الفتح ميداناً كبيراً لانتشار الدعوة، إذ أصبح خيراً على المستضعفين في مكة، فأمن الناس بعضهم بعضاً، وصاروا يُظهِرون الشعائر ويتحدثون عن الإسلام حتى إنه كما يُروى: (لم يُكّلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر). وكان ذلك سبباً في تسارع كثير من أهلها إلى الإسلام، فلم يقاوموه عند الدخول لفتحها.

النتائج:

١- استنباط الحِكم والفوائد والأحكام من أحداث السيرة النبوية وفتح مكة المكرمة.

٢- جمع ما تفرق من استنباطات في كتب السيرة المشهورة الخاص بفتح مكة.

٣- ذكر ما جاء من فوائد في بعض كتب شروح الحديث حول أحداث فتح مكة.

٤- فتح مكة كان فتحاً للإسلامبدخول الناس في دين الله أفواجاً.

٥- فتح مكة فتح الباب أمام القبائل العربية في الجزيرة العربية بالوفود إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وإعلان إسلامهم.

٦- هذا الفتح وتحمل المسلمين بما فيه يدل صراحة على أن الهدف من الجهاد ليس تقتيل الناس وسفك الدماء، بل دعوة الناس إلى هذا الدين وتبليغه إياهم

٧- إن هذا الفتح وما جاء فيه يفند دعاء البعض إرهابية الإسلام، ويرد عليهم الواقع والمنطق ببطلان ذلك.

التوصيات:

١- الاتباع الأمثل لمنهج النبي (صلى الله عليه وسلم) دون الابتداع، لأن ما جاء به (صلى الله عليه وسلم) من ذاك الزمان وإلى الوقت الحاضر كله حق.

٢- على المسلم التروي وعدم التسرع في الحكم على الغير حتى يتبين.

٣- احتمال قلة أدب غير المسلمين في التطاول على الإسلام وردهم رداً جميلاً للمصلحة العامة.

٤- على المسلم استحباب التفاؤل دائماً.

٥- على الإمام أو الأمير إذا ما طلب منه النصرفي حالة نقض العهد لا يرفض مادام فيه مصلحة المسلمين.

٦- على القائد أن يميل إلى الخدعة والتجسس في حال الحرب على العدو مادام ذلك في مصلحة المسلمين.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- أخبار مكة في قديم العصر وحديثه/ عبد الملك عبد الله دهيس، ط١، النهضة الحديثة، مكة المكرمة.

٣- الاستيعاب في معرفة الأصحاب / يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي، ط١، دار الكتب العلمية، دمشق، ١٤١٢هـ.

٤- الرحيق المختوم/ صفي الرحمن المباركفوري، ط١، دار السلام، القاهرة، ٢٠١٣م.

٥- الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام / أبو القاسم السهيلي، تحقيق مجدي بن منصور، ط١، دار الكتب العلمية، القاهرة، ٢٠٠٩م.

٦- السيرة النبوية/ ابن هشام.

٧- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية/ محمد سعيد رمضان البوطي، ط٦، دار السلام، القاهرة، ٢٠١٢م.

٨- السيرة النبوية دروس وعبر/ مصطفى السباعي، ط١٢، دار السلام، القاهرة، ٢٠١٤م.

٩- الطبقات الكبرى/ لابن سعد.

١٠- الفوائد السنية من السيرة النبوية/ خالد بن حامد الحازمي، ط١، دار الزمان، المدينة المنورة، ٢٠٠٦م.

١١- المحلى بالآثار/علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، تحقيق عبد الغفار سليمان، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٢- المستدرك على الصحيحين/ محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، ط١، دار الكتب العلمية، دمشق، ١٩٩٠م.

١٣- بدر التمام في سيرة خير الأنام / علي بن عمر وآخر، ط١، دار ابن حزم، بيروت، ٢٠١٥م.

١٤- تهذيب سيرة ابن هشام/ عبد السلام محمد هرون، ط٦ ، مكتبة السنة، القاهرة، ١٩٨٩م.
١٥- ذكرى من مكة المكرمة/ خالد محمد حامد، ط١ ، دار المأمون للتراث، دمشق، ٢٠٠٥م.
١٦- زاد الميعاد في خير هدي العباد/ محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط٣، مؤسسة الرسالة، القاهرة، ١٤١٨هـ.
١٧- سنن الترمذي.
١٨- . صحيح البخاري.
١٩- صحيح البخاري من فتح الباري، ابن حجر العسقلاني.
٢٠- صحيح مسلم.
٢١- صحيح مسلم بشرح النووي.
٢٢- فقه السيرة / محمد الغزالي، ط٧، دار القلم، دمشق، ١٩٩٨م.
٢٣- مسند الإمام أحمد بن حنبل.
٢٤- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع / أبو العباس محب الدين الطبري، تحقيق جمال طلبة، ط١ ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٥- مكة المكرمة منبع العلم والحضارة / عبد الله صالح حبابي وآخرين، ط١ ، دار زهرة الشرق، القاهرة، ٢٠٠٦م.
٢٦- مكة المكرمة / عبد الرحمن بودرع، ط١ ، مطبعة الخليج العربي، الرياض، ٢٠١٠م.
٢٧- نهاية الإرب في فنون الأدب / شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، ط١ ، دار الكتب، القاهرة.
٢٨- نور النبراس على سيرة ابن سيد الناس / أبو الوفاء برهان الدين إبراهيم بن محمد بن العجمي، ط١ ، دار النوادر، دمشق، ٢٠١٤م.